كلمة البروفسور سليم دكّاش اليسوعيّ، رئيس جامعة القدّيس يوسف في بيروت، في افتتاح مؤتمر تحت عنوان "الرعاية الصحيّة والتواصل"، "الرعاية بالتواصل في عالم الصحّة"، نظّمه كلٌّ من كليّة الطبّ والمعهد العالي للعلوم الدينيّة، في جامعة القدّيس يوسف في بيروت، يوم الجمعة الواقع فيه 8 آذار (مارس) 2019، في المدرَّج C، حرم العلوم الطبّية.

أودّ أن أشكر منظّمي هذا المؤتمر لدعوتهم لي كرئيسٍ للجامعة كي ألقي كلمة حول "الرعاية الصحّية والتواصل" من أجل أن أوجّه كلمة الترحيب هذه، كما أشكرهم لأنّهم قاموا بتنظيم هذا المؤتمر متعدّد التخصّصات، والذي يحمل عنوان "الرعاية الصحيّة والتواصل" وهو الموضوع الذي سيتمّ التطرّق إليه خلال هذين اليومين. أودّ أن أقول إنّني أشعر بأنّي معنيٌّ بعض الشيء بهذا الموضوع وبإشكاليّته التي تفترضها مهمّة مستشفى "أوتيل ديو دو فرانس". وبالتالي، فإنّ الأسئلة التي أطرحها على نفسي هي التالية : هل يمكننا بلورة نظام للرعاية الصحّية من دون أن يكون مرتبطًا بالتواصل ؟ أيّ نوع من التواصل هو ؟ ربّما في بلد مثل لبنان، يمكن أن يُطرَح سؤال آخر : ما هو المحتوى الذي يمكننا نقله وما الذي لا يمكننا نقله وإلى من ننقله ضمن النظام الصحّي وخاصّة على المستوى الإستشفائيّ ؟

كان أحد الباحثين قد أشار إلى أنّ التواصل من أجل الصحّة يُمارَس في السياقات المتعدّدة التالية : العلاقة بين مريض ومقدّم الخدمات الصحيّة ؛ البحث الذي يقوم به فرد أو مجموعة عن معلومات حول الصحّة ؛ إنخراط فرد أو مجموعة بعلاج أو بتوصيات محدّدة ؛ بلورة حملات توعية مخصّصة لعامّة الناس ؛ التوعية على المخاطر الصحيّة المرتبطة بممارسات أو بسلوكيّات محدّدة ؛ إنتشار تصوّر معيّن بين السكّان حول الصحّة ؛ إنتشار المعلومات المتعلّقة بإمكانيّة الوصول إلى الرعاية الصحيّة ؛ التواصل مع صنّاع القرار لتغيير البيئة. وهذه مجرّد أمثلة لما يمكن أن يكون عليه التواصل في المجال الصحّي.

علاوة على ذلك، يصحّ القول إنّ أدوات التواصل أصبحت أكثر فاعليّة على مستوى المستشفى، وتبيّن تجربتنا في المستشفى الإلكترونيّ في مستشفى "أوتيل ديو دو فرانس" أنّنا نستطيع أن نكون على اتّصال شبه فوريّ في كلّ لحظة بين فئات مختلفة مثل الأطبّاء والممرّضات، والإدارة، إلخ، أولئك الذين يشكّلون الشبكة البشريّة والمهنيّة في المستشفى، بما فيها شبكة التواصل بينهم وبين المريض أو غرفته وسريره الذكيّ لأنّنا لم نعد في عصر الاتّصال الثابت بل الإتّصال الديناميكيّ الذي يحثّ على استخدام الذكاء الإصطناعيّ. لكنّنا نعرف أنّ

الاتّصال يمكن أن يكون مجرّد رابط تقنيّ وأنّه يتوجّب علينا أن نبذل جهدًا، لكي يتمّ من خلاله إقامة تواصل حقيقيّ. ونحن نعلم أيضًا أنّ طريقة التواصل هذه تعرض على جميع الجهات الفاعلة تقريبًا ملفّ المريض بطريقة تجعل السرّ الطبّي مهدّدًا في مكان ما.

يصحّ القول أيضًا أنّه بإمكاننا إنشاء هيئات من المهنيّين في التواصل ضمن المؤسّسات، داخل المستشفى وخارجها، كي يقيم المستشفى أو النظام الصحّي علاقة مع بيئته من أجل نقل هويّته الخاصّة وفلسفته في الرعاية الصحيّة ؛ من خلال نظام التواصل هذا، يحاول أن يرسل أيضًا الصورة التي يريدها لنفسه، ومن ناحية أخرى، يضبط الصورة التي لدينا عنه لأنّ المستخدمين اليوم هم الذين يصنعون الصورة بحسب الشائعات والمعلومات التي ترد من هنا وهناك حول المستشفى أو حول النظام الصحّي.

لكن كلّ هذا لا يلغي حقيقة أنّ التواصل ليس أمرًا جديدًا في هذا المجال، ولا سيّما الرعاية الصحيّة، على عكس ما يقوله العرض الموجز لعنوان هذا المؤتمر. عادةً، أي نوع من الرعاية يشكّل لحظة مهمّة من المهمّة الإنسانيّة التي يؤدّيها المستشفى والطبيب، وكذلك المهن الصحيّة الأخرى وحتّى حياة المريض. لكلّ عصر في هذا المجال طريقته في التواصل. وفقًا لما لدينا، وبدون أن نحاول أن يتملّكنا الحنين إلى زمن مثاليّ ضائع، لطالما كان هناك حوار إنسانيّ للغاية يجري بين الطبيب ومريضه وكذلك بين المستشفى أو النظام الصحّي والمرضى. لسوء الحظ، القضايا الإقتصاديّة والابتكارات التكنولوجيّة المتعلّقة بالصحّة كخدمة يقدّمها القطاع الخاصّ أو العامّ، تركّز بشكل أكبر على الفوائد الماديّة والماليّة أكثر ممّا تركّز على نوعيّة العلاقة الجيّدة. ولهذا السبب، سأتردّد في الإقرار بما يدلي به العرض الموجز للمؤتمر وهو أنّ التواصل هو اكتشاف جديد في مجال الصحّة.

الرعاية الصحيّة لا تقتصر فقط على معالجة مرض ما ولكنّها تطال أيضًا الإعتناء بالمريض الذي عانى ويعاني من الآثار السلبيّة للمرض. في تعبير التعليم اليسوعيّ، نتحدّث عن الرعاية الشخصيّة، أي توفير الرعاية لشخص ما. يجب أن يتمّ الوعي لدى مختلف الجهات الفاعلة في المجال الصحّي والرعاية الصحيّة، وأعتقد أنّ هذا هو الهدف من هذا المؤتمر. إنّه الوعي الذي يأخذ بالاعتبار أنّ التواصل اليوم وغدًا حول الصحّة سيكون تواصلًا عبر الشبكة الإلكترونيّة بين شركاء وليس بين منافسين. في شبكة التواصل هذه، يمكن للمرأة أن تلعب دورًا أساسيًّا وهي تؤدّيه. فلنحيّيها في هذا اليوم العالميّ للمرأة كما نحيّي المعلّم في لبنان الذي يحتفل أيضًا بعيده. هذا الوعي يجب أن يقودنا جميعًا، ضمن منظور متعدّد التخصّصات، للعمل سويًّا من أجل إيجاد أفضل الحلول في توفير الرعاية التي تضع المريض في قلب أي نظام صحّي.